

الفصل الخامس

الجمهورية

٢٤ — ٤٠ هـ (٦٤٤ — ٦٦١ م)

عثمان — محابة — قتل عثمان — علي — عصيان معاوية
وقعة صفين — الخوارج — اغتيال علي — نهاية الجمهورية

كان في مكة « عمر » أن يستخلف بسهولة « علياً » أو ابنه « عبد الله » الملقب بابن عمر ، غير أنه أصاخ لضميره وهي صفة لازمته طوال أيام حياته فأوكل أمر الانتخاب إلى عدة من أشرف المدينة . ولكنه بتجنبه الاقتداء بسلفه ارتكب هفوة مهدت السبيل إلى مؤامرات الأمويين الذين تراءم الآن يؤلفون حزبا قويا في المدينة . والمعروف أنهم كانوا منذ زمن طويل من أشد المنافسين لبني هاشم (أسرة الرسول) كما كانوا يحملون لهم في صدورهم أشد الأحقاد والضغائن ، فكثيرا ما طاردوا النبي (صلى الله عليه وسلم) وتألّبوا عليه ؛ بل لعلهم لم يعتنقوا الإسلام إلا ببواعث المصلحة الشخصية حتى بعد فتح مكة ؛ إذ رأوا في انتشار الدين الجديد عاملا من عوامل ارتفاع شأنهم وإعلاء كلمتهم . كذلك كانوا يمحذون على الصحابة الذين حكموا المسلمين وينظرون إلى أعضاء مجلس الشورى ورؤساء الحكومة الأولين بعين الحسد المستور ، وفوق ذلك كانت حياة الحواريين النقية الفطرية مصدراً دائماً لتبكيّت ضميرهم على معيشتهم المترفة . ونستطيع أن نقول أنهم وجدوا لهم بسهولة أخلاقاً بين رؤساء القبائل الذين يرتبطون معهم بأوشاج الدم والقرابة . فتمكنوا من إبعاد علي عن منصب الخلافة ، وبعد مناقشات ومناوشات دارت بضعة أيام وقع الخيار على « عثمان بن عفان »

الأموى . ومع أنه كان رجلاً فاضلاً ، ورعاً ، أميناً ؛ إلا أنه كان كبير السن ، ضعيفاً . فوقع في الحال كما توقعوا له من قبل تحت نفوذ أسرته وانتقاد إلى كاتبه « مروان بن الحكم » أكثر بنى أمية دهاء . وما أن وقع الخيار على عثمان حتى أقدم « على » بحماسته الموهودة وتفانيه الشديد على مبايعته . وفي أيام عثمان بدأ النزاع القديم الذى استمر أكثر من قرن بين بنى هاشم وبنى أمية وكاد يخدم أواره في عهد النبی وخليفته . ولكن ذلك لم يكن البلاء الوحيد الذى حل بالإسلام في أيامه إذ أن القبائل العربية التى من طبيعتها اللل من الخضوع للقانون والنزوع إلى الحرية والتى خضعت إلى شخصية النبی وأسلمت القياد لحزن أبى بكر وصراة عمر بن الخطاب بدأت الآن في أيام سيطرة فرس تعود سيرتها الأولى . وتنقل معها بذور التمرد في البلاد البعيدة التى هاجرت إليها : كما بدأ يترعرع من جديد ذلك التنافس القبلى القديم الذى كان قد خمد أواره في عهد الرسول وعاد الآن يجر في أذياله أسوأ النتائج وأشدها هولاً على المسلمين . ويقول المؤرخون إن « عثمان » عزل معظم العمال الذين كان قد عينهم عمر بن الخطاب واستعاض عنهم بعمال من عشيرته . ومع ذلك فقد بقى الناس خلال الست السنوات الأولى من حكمه محافظين على سكوتهم بالرغم من تعسف الحكام واستبدادهم .

أما في الأمصار البعيدة فقد ظل الجيش منهمكا في درء الخطر المشترك الذى كان يهددهم جميعا . كذلك أدت غزوات الأتراك فيما وراء النهر إلى استيلاء المسلمين على « بلخ » وفتح « هراة » وكابول ، وغزنة ، كما أدى انتفاض جنوبى فارس إلى إخضاع كرمان وسجستان ؛ وقد حذا عثمان حذو عمر في تأسيس الحكومات الجديدة فما كاد العرب يستولون على تلك الأمصار حتى اتخذوا الإجراءات الفعالة لتحسين مصادرها المادية وترقية شؤونها فحفرت الجداول ، وعبدت الطرق ، وغرست الأشجار ، وأسس نظام خاص للشرطة لصيانة الأمن وحماية التجارة . وقد أدت غارات الجيش البرنطلى في الشمال إلى توغل جنود العرب في البلاد

المسماة الآن بالأناضول حتى سواحل البحر الأسود ، كذلك فتحوا طرابلس ، وبرقة في أفريقيا ، واستولوا على جزيرة قبرص في البحر الأبيض المتوسط ؛ وحطموا أسطول الروم الكبير الذي جاء إلى مياه الإسكندرية لغزو مصر من جديد .

وفما كان الإسلام ينتشر وتتحقق رايته على ربوع تلك الأمصار كان على ابن أبي طالب يصرف جهوده في المدينة لتوجيه نشاط العنصر العربي الناشئ إلى الناحية العلمية ، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس في إلقاء محاضرات أسبوعية في المسجد الجامع في الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه ؛ بينما تفرغ غيرها إلى إلقاء محاضرات في شؤون أخرى . وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي ترعرعت وزدهت بعد حين في « بغداد » عاصمة العباسيين . وفي تلك الأثناء طفق الناس يتذمرون من تصرف الخليفة ومن المقربين إليه ، وارتفعت الشكوى من استبداد الحكام واغتصابهم الأموال وقد تكلم « علي » عدة مرات مع الخليفة في هذا الشأن ولكن « عثمان » بتحريض مروان أبي الاسبتاع إلى نصائحه وأخيراً جاءت الوفود إلى المدينة تطلب إقامة العدل والإنصاف ، فأعادم الخليفة إلى أمصارهم بعد أن وعدهم خيراً . ولكنهم ما كادوا يغادرون المدينة حتى عثروا على كتاب بخط « مروان » . وقد قيل انه بحتم الخليفة يطلب فيه قتلهم جميعاً فاستشاطوا غضباً وقفلوا راجعين للمطالبة بقتله . ويجب أن نذكر هنا أن بعض أفراد الأسرة كانوا قد ضموا أصواتهم إلى المتمردين ، غير أن الخليفة السبي الطالع أبي الاسبتاع إليهم فظنوا أن له ضلعاً في المسكيدة ، وحاصروه في بيته . ويقال إن أقاربه تخلوا عنه وقت الشدة وهربوا إلى الشام ؛ ولكن علياً وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعاً مشهوداً بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم . وتقول لنا الرواية العربية إن اثنين منهم تسلقا جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنة وقيل ٨٦ سنة . وكان ملتجئاً ، متوسط الطول ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة الزيمة وصلابة الرأي ، غير أنه امتاز بالجود

والكرم ، ويعرف عنه أنه أهدى كاتبه مروان بن الحكم في عدة فرص أموالاً من بيت المال الأمر الذي جلب عليه سخط المسلمين

خلافة علي

ولما قتل « عثمان » بويج « علي » بالإجماع . وقد كان في خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يأل جهداً في مساعدتهم وتزويدهم بالإرشادات القيمة . كذلك ينسب كثير من الأعمال الإدارية العظيمة التي تمت في عهد « عمر » إلى إرشاده ، إذ كان في الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحه فأنابه عنه مدة سفره إلى الشام . ولكن « عليا » كان دائماً في جميع أطوار حياته مستقل الرأي ، لا يدهن ولا يرأى ، متفرغاً إلى العلم وإلى تهذيب أولاده . ويقال إنه حين أفضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع ببساطته المعهودة ، وأخذ يتقبل البيعة من الناس (وهو متكئ على قوسه الطويل) وكان فيما قال انه مستعد إلى التنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه . ويقول مؤرخ فرنسي مشهور^(١) : « يخيل للمرء حينما بويج علي بن أبي طالب أن الكل سيطأ على هامته أمام هذه العظمة المتلاثلة النقية غير أنه قدر غير ذلك » فلقد أحاط به في بادئ الأمر عداء بني أمية ؛ ولكنه لم يحتط للدسائس ، وأبى أن يقر عمال « عثمان » مدفوعاً بشرف الغاية التي كانت من أبرز ميزاته . ورغم النصائح التي أسديت إليه لمسايرة الظروف فقد انتزع الأملاك التي أقطعها « عثمان » لأتباعه من بيت المال ، وقسم الخراج طبقاً للقواعد التي سنّها « عمر »^(٢) « فجلبت عليه هذه الإجراءات الحازمة سخط الذين أثروا في العهد السابق . وقد تنازل بعض العمال عن مناصبهم دون مقاومة بينما رفض البعض الآخر النزول على أمر الخليفة الجديد ومن بينهم معاوية ابن أبي سفيان عامل الشام الذي كان قد جمع ثروة طائلة ، وأعد تحت إمرته جيشاً لجباً يدين له بالولاء ؛ وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد أن احتاط للأمر واستعد للمقاومة .

ولكن هذه الأمور لم تكن العقبة الوحيدة التي جابهت أمير المؤمنين الجديد إذ أن طلحة والزبير عند ما رفض طلبهما باستعمال الأول على الكوفة والثاني على البصرة انقلبا عليه ، واستحالت صداقتهما الواهية الأوشاج إلى عداوة نكراء وكذلك « عائشة » بنت أبي بكر وزوج الرسول التي كانت تحقد على « علي بن أبي طالب » زادت في النار اشتعالا ؛ وقد تنامى طلحة والزبير بيعتهما وفرا إلى مكة ثم توجهوا إلى العراق حيث التحقت بهما عائشة ؛ وهناك جمعوا جيشاً كثيفاً لمقاومة الخليفة . فبذل « علي » . وقد كان يتبعهم عن كشب ، جهوداً جبارة لإقناعهم بقبول الصلح ، واسكنهم أبوا الإقتاله ؛ وعندئذ نشبت بينهما معركة حامية في « الحربية » وأسفرت عن قتل « طلحة » و « الزبير » . كما أعيدت « عائشة » إلى المدينة معززة مكرمة .

وبعد أن استتبّت الأمور للخليفة الجديد في كلدة والعراق سار إلى الشام فقابلته جيش معاوية ودارت رحى القتال بين الفريقين في موقعة « صفين » غربي الرقة . وقد حاول « علي » حسم الخلاف بصورة سلمية غير أن « معاوية » بقي متمسكا برأيه ؛ وعندئذ طلب « علي » حقنا لدماء المسلمين أن يتبارز الإثنان . وأيهما قتل صاحبه استقامت له الأمور ، فرفض معاوية قبول هذا الاقتراح . ومما يؤثر عن الخليفة أنه أمر رجاله — بالرغم من تحرش جنود الشام — « ألا يبدأوا القتال ، وألا يطلبوا مولياً ، وألا يتبعوا مدبراً » فنى جيش الشام بالهزيمة في ثلاث معارك متوالية ، وكاد معاوية يلوذ بالفرار لولا حيلة شريكه « عمرو بن العاص » الذي أنقذه من الهزيمة بأن أوعز إلى الجنود برفع المصاحف على أسنة الرماح والرايات والمطالبة بالتحكيم . وفي الحال توقف جنود الخليفة عن القتال وألحوا على قائدهم « ألا يرد ما دعاه إليه أهل الشام » فقطن « علي » إلى مكيدة « عمرو » ، ولكن إلحاح الجيش جعله ينزل على طلبهم ، ووقع الخيار لسوء الطالع على رجل كبير السن ، ضعيف الرأي ، اسمه « أبو موسى الأشعري » ، ولم يكن

قط كنزاً « لعمر بن العاص » ممثل « معاوية » . وهكذا حرم « على » من ثمرة انتصاره بسبب حماقة جنوده ؛ وفي الحال سار مشمئزاً إلى الكوفة ، غير أن أولئك الذين رحبوا بفكرة التحكيم في موقعة صفين عادوا الآن ساخطين عليها ورأوا فيها إثماً وأى إثم ، كما أعلنوا عصيانهم وانسحبوا إلى النهروان على حدود الصحراء واتخذوا موقفاً عدائياً شائناً . فأرسل الخليفة إليهم رسولا يدعوهم إما إلى العودة إلى صفوف الجيش ، وأما الرجوع إلى أوطانهم فأبوا إلا مقاتلته ؛ وعندئذ حمل عليهم حملة صادقة حتى أفنى معظمهم ، وفر الباقون إلى البحرين والأحساء حيث كونوا نواة فئة متعصبة ^(١) أصبحت بمضى الزمن شوكة تقاوم مضجع الإمبراطورية الإسلامية بسبب الغارات التي كانت تشنها عليها . وبينما كانت تلك الحوادث تجري في تلك الأنحاء ، برهن « أبو موسى » إما على أنه قد خان العهد الذي أوثمن عليه ، أو أنه وقع في حبال المكيدة التي نصبوها له في « دومة الجندل » ، حيث كان « عمرو بن العاص » قد اقترح حقناً للدماء أن يخلعا صاحبيهما ، وأن يقوم أبو موسى ويخلع « علياً » ثم يقدم هو من بعده ويخلع معاوية ؛ ومن ثم يتكلمان باسم من يستخلفان ؛ فقام « أبو موسى » الساذج واعتلى المنبر وأعلن خلع على وما هو إلا أن اعتلى عمرو بن العاص المنبر وأقر خلعه وثبت صاحبه . فأنارت بساطة أبي موسى سحقاً لأصحاب « على » وتساب الطرفان وتفرقا وهما يتوعدان ، فقفل أبو موسى راجعاً إلى المدينة . ويقال إن معاوية رتب له المخصصات وقد ظلت الحرب تسعر أوارها ردحاً طويلاً من الزمن ولولا المشاكل التي جابهها « على » في الميدان الشرقي لسير جيشاً كبيراً على الشام . وعلى هذا لم يحتفظ معاوية بالشام وينادى بنفسه أميراً للمؤمنين فحسب ؛ بل نشر سلطانه أيضاً على مصر .

كان للسلم والخنجر أكبر نصيب في القضاء على أنبل أتباع الخليفة الذي

مقتل على

لاقى حتفه هو الآخر بضربة سيف من يد أئيمة ، بينما كان يصلى فى المسجد الأعظم بالكوفة فى اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ٦٦١ م . وهكذا مات أفضل المسلمين قلباً وأسلمهم طوية ، كما يصفه الكولونيل «اسبون» . كان « على » شهماً ، وديعاً ، محسناً ، رحيماً باليتيم ، معيناً للضعيف ، خصماً للظالم ، وعوناً للمظلوم ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولو كانت له صلابة « عمر » لنجح فى حكم الشعب العربى المطبوع على الأنفة وحب البداوة ؛ ولكنهم أساءوا فهم تهاونه فى حقوقه الخاصة وتساهله واستغل أعداؤه مروءته وتمسكه بالصدق لصالحهم الشخصى . ويقال فى وصفه : إنه آدم اللون ، دحداح ، قوى البنية ، يميل إلى السمنة ، طويل اللحية ، له عينان شهلوان يمان عن العطف والحنان . وقد أكسبته مناقبه ألقاباً خاصة عرف بها فسمى « أسد الله » لشجاعته ، و « باب العلم » لعمه وفقهه ؛ وكان فارساً ، مغواراً ، كريماً ، متساهلاً إلى أقصى حدود التساهل ؛ ويمكن أن يقال إنه كحكم قد سبق عصره وجاء قبل أوانه ؛ وتعرضا أهم الأعمال الخطيرة التى تمت فى زمن عمر لخير المسلمين إلى مشورته . ولا تزال القصص تقرأ فى المقامى من حدود القاهرة حتى حدود دلهى بالهند فتحدثنا عن بطولته وحماسته وإنصافه للمظلوم ؛ فهى فى مجموعها تعيد إلينا ذكرى البطولة العربية مجسمة بأجلى مظاهرها فى أشجع فارس عرفه الزمان . وقد أوصى أولاده قبل وفاته بالتواضع ، والبر ، والتقوى ، والإعراض عن حطام الدنيا ، وعدم التأسف على شىء منها ؛ كما طلب بصراحة ألا يعذب قاتله وأن ينفذ فيه حكم الإعدام بضربة واحدة ؛ وقد أجمل المسعودى مناقبه فى قوله : « كان والله علم الهدى ، وكهف التقوى ، ومحمل الحجا ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلالورى ، داعياً إلى المحبة العظمى ، متمسكاً بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من انتعل وسمى ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبي المصطفى ، صاحب القبلتين ،

فلا يوازيه أحد ولا يقارنه بشر . وكان له من فاطمة ثلاث بنون وأربع بنات وقد توفيت زوجه بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بيضعة أشهر ولم يتزوج عليها وإن كانت العوائد العربية تسمح له بالزواج من غيرها وقد كانت سيدة مشهورة في عصرها ذكية القلب حادة الذهن نشيطة الفؤاد تتم أقوالها وأغانيها وحكمها الماثورة عن متانة الخلق وسمو الأفكار ؛ كذلك أكسبتها مناقبها لقب « سيدة النساء » وهو اللقب الذي عرفت به بين المسلمين ؛ وكانت طويلة القامة ، رشيقة القوام ، آية في الجمال فأطلق عليها اسم « الزهراء » .

ويقول كاتب^(١) فيلسوف بهذا الصدد : « مات بموت «على» النظام الجمهورى وطويت صفحة الحكم الذى كان عماده البساطة المشيخية ، ولم يبق بعد زوال الحكومة الانتخابية إلا الفقه والأحكام المستندة إلى القرآن ، ولكن بقيت مع ذلك بعض النزعات الجمهورية تتأجج في الشعوب الإسلامية فأكسبت الدول الصغرى هيبة وعظمة ، وزادت في الدول العظمى قوة ومنعة بالرغم من رهط المقتصين » .

(١) أوسلتر في كتابه (تأثير الدين الإسلامى)